الإمام نافع المدني: سلطان القراء وشيخ القراءات القرآنية في الغرب الإسلامي

Imam Nafie Al-Madani: Sultan of the Reciters and Sheikh of Quranic Recitations in the Islamic Maghreb

د. محمد القايـدي * [1]

[1] الجامعة الزيتونية، تونس، gaidi.beja@gmail.com

تاريخ الاستلام: 24 /2023/06 تاريخ القبول: 03 /2024/01 تاريخ النشر: 31 /2024/01

ملخص:

تعتبر "قراءة نافع المدني" من القراءات المتواترة التي عرفت انتشارا كبيرا في بلاد الغرب الإسلامي حتى عدّها البعض صحبة المذهب المالكي من العوامل الرئيسية المكونة للانسجام الديني والوحدة المذهبية التي امتازت بها هذه المناطق، وهو ما ساهم في استقرارها السياسي والاجتماعي ونبوغها الحضاري. فقد مثلت هذه القراءة علامة ثقافية بارزة وفاعلا حضاريا نشيطا صقل وهذب لسان شعوب هذه المناطق وحفظ لها هويتها الحضارية وثبّت مرجعيتها العربية الإسلامية، فبها عرف النّاس القرآن وعبرها اكتشفوا لغة الضاد فتعرّبت الألسن وأسلمت الأنفس.

وكان للعالم الجليل والمؤسس (الإمام نافع المدني) الفضل الكبير في شيوع صيت هذه المدرسة وشهرة تلاميذها ورواتها في الآفاق فهو الذي ورث علم الصّحابة والتابعين وعاصر الأئمة الأربعة المشهورين وتتلمذ على يديه العشرات من الرواة الخيرين المتميزين فانتشروا في الأمصار فاتحين ومعلمين. ولجهودهم صنفت المؤلفات وبالنشر والشعر أُثريت المدونات فتركوا لنا إرثا نفيسا فاق كل التوقعات.

وتدور إشكالية هذه الورقة حول قضية مركزية: ما هي عوامل انتشار قراءة نافع في الغرب الإسلامي ومنهج وأساليب اشتغالها؟

ويتطلع الباحث من هذه الدراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف منها: تسليط الضوء على هذه القراءة القرآنية ومؤسسها مع إبراز أبعادها الثقافية ودلالاتها الحضارية وقد اعتمد الباحث في دراسته لتحقيق هذه الأهداف على المنهج التاريخي والتحليلي من خلال سبر غور المصنفات والمؤلفات ذات الصلة بموضوع الدراسة. وفي الخاتمة توصلت الدراسة لمجموعة من النتائج من أبرزها: أهمية هذه المدارس القرآنية تاريخيا واسهاماتها العظيمة في صقل اللسان العربي والحفاظ على الهوية العربية الإسلامية وهي مهمة تزداد أهمية في العصر الحاضر، عصر العولمة والغزو الحضاري مما يدفع المؤسسات الرسمية إلى إعادة بناء استراتيجياتها التعليمية والثقافية على ضوء متطلبات العصر وتحديات الحاضر.

الكلمات الدالة: نافع المدني، القراءات، الغرب الإسلامي، القرآن الكريم، القراء.

Abstract:
The reading of Nafeh al-Madani is considered one of the frequent readings that were widely known in the Islamic Maghreb, until some considered the companions of the Maliki school of thought one of the main factors constituting the religious harmony and sectarian unity that characterize these regions, which contributed to their political and social stability and their civilizational brilliance. This recitation represented a prominent cultural sign and an active civilized actor who polished and refined the language of the peoples of these regions, preserved for them their civilized identity, and established their Arab-Islamic reference. Through it, people knew the Qur'an, and through it they discovered the language of adversity, so tongues became Arabized and souls became Muslim.
Keywords: Nafeh al-Madani, readings, the Islamic West, the Holy Qur'an**.**

المؤلف المرسل: د. محمد القايـــــدي، gaidi.beja@gmail.com

1. مقدمة:

أنزل الله تعالى القرآن الكريم شريعة خاتمة للبشرية وجعله معجزة الإسلام الخالدة وتكفل سبحانه بحفظه إلى يوم الدين. وقيض له رجالا نشروه في الأفاق وبينوا أحكامه وعلومه. وكان علم القراءات من العلوم النّفيسة التي حفظت للقرآن الكريم لسانه العذب الأصيل وحمته من التحريف والتصحيف فهذبت الألسن وعربتها وصقلتها. وكان لقراءة نافع المدني دور مميز في نسج الوحدة اللّغوية للغرب الإسلامي كما نسج فقه مالك بن أنس المدني الوحدة المذهبية لهذه الربوع. فقد توفرت جملة من العوامل لتجعل من قراءة نافع القراءة الرسمية التي تدرّس للطلاب ويُصلى بها في المساجد. وذلك للخصائص التي ميزتها والسّمات التي انفردت بها والأسانيد المتينة التي رويت بها. وكان لشخصية الإمام نافع المدني دور فعال في انتشار صيت قراءته وعلو شأنها فقد كان شيخ القراء وكبير السبع العظام في القراءات فهو أوسعهم علما وأدقهم ضبطا وقارئ المدينة المميز.

من أجل ذلك يسلط الباحث الضوء في هذه الورقة البحثية على مقومات هذه المدرسة القرآنية (مدرسة نافع المدني) وامتداداتها وخصائصها. فبعد أن يترجم الباحث لمؤسسها ويبرز ظروف نشأته وشيوخه وشخصيته العلمية ومنهجه في الإقراء وأسلوبه في التلقي والتحمل ويعرف بأبرز تلاميذه، يتوقف الباحث عند قراءة نافع أسانيدها وطرقها وخصائصها وأطوار تكونها ومنهجها وأساليب التلقي والتحمل فيها ثم يكشف الباحث عوامل انتشار هذه القراءة في المغرب الإسلامي عموما وما تولد عنها من مدارس مغربية في أصول قراءة نافع.

وتدور إشكالية هذه الورقة حول قضية مركزية، ما هي عوامل انتشار قراءة نافع في الغرب الإسلامي ومنهج وأساليب اشتغالها؟

ويتطلع الباحث في هذه الدراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف منها: تسليط الضوء على هذه القراءة القرآنية ومؤسسها مع إبراز أبعادها الثقافية ودلالاتها الحضارية وقد اعتمد الباحث في دراسته لتحقيق هذه الأهداف على المنهج التاريخي والتحليلي من خلال سبر غور المصنفات والمؤلفات ذات الصلة بموضوع الدراسة. وفي الخاتمة توصلت الدراسة لمجموعة من النتائج من أبرزها: أهمية هذه المدارس القرآنية تاريخيا واسهاماتها العظيمة في صقل اللسان العربي والحفاظ على الهوية العربية الإسلامية وهي مهمة تزداد أهمية في العصر الحاضر، عصر العولمة والغزو الحضاري مما يدفع المؤسسات الرسمية إلى إعادة بناء استراتيجياتها التعليمية والثقافية على ضوء متطلبات العصر وتحديات الحاضر.

2. مبحث تمهيدي: ترجمة لنافع المدني ومنهجه في القراءة

1.2 الإمام نافع المدني:

هو أبو عبد الرحمن، وقيل أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم[1] مولى جَعْوَنَةْ[2] المدني المولد والمنشأ الأصفهاني الأصل[3]، وكان أسود اللّون حالكًا لكنّه مع ذلك كان جميل الخلقة فيه صباحة ووسامة ودعابة وطيب أخلاق[4]، سبي جده أبو نعيم في الفتح الإسلامي لبلاد فارس في عهد الفاروق عمر بن الخطاب. ولد سنة سبعين من هجرة النبي ﷺ.

عاش بالمدينة المنورة التي كانت وريثة علم النبوة والصّحابة والتابعين وعلى مشايخها تتلمذ في صباه. وكان أول شيخ تعرف عليه نافع هو أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني (ت 130هـ) وقد جاء عن نافع أنّه قال كنت أقرأ عليه وأنا ابن تسع ولي ضفيرتان[5] وقد نهل نافع من علم مشايخ المدينة وكان مجتهدًا ذكيًا فبرع في القرآن الكريم

وعلومه حتى أن بعض الروايات[6] تقول أنّه كان يُزاحم أساتذته وأهل القراءات ولم يبلغ سن الخامسة والعشرين حيث تصدّر للإقراء.

ومن الروايات التّي تؤكد جلوس نافع للإقراء في سن مبكرة ما ذكره بعض الباحثين في ترجمة الإمام مالك بن أنس (ت 179هـ) في الحديث عن طفولته حيث يذكرون أنّه حفظ القرآن على قارئ المدينة أول السبعة القراء نافع بن أبي نعيم.[7] ومالك كما هو معلوم ولد سنة 93 هجري وهذا ما يؤكد أنّ نافعًا مارس التّعليم والتأديب مبكرًا وهو ما جعل البعض ينعته "بمُؤدب مالك بن أنس[8]

نشأ نافع بالمدينة وتزوج فيها وأنجب الأبناء وإن كانت الروايات لم تذكر تفصيلاً عنهم ولم نجد لهم وجود بين تلامذته. ولقد تبوأ نافع مكانة رفيعة في قلوب النّاس جعلت أهل المدينة يجلونه ويقدموه لإمامتهم في المسجد النّبوي ويتمسكون بقراءته، وأهل الأمصار يتطلعون للقراءة عليه حتى صار كما قال ابن حبان: "علمًا يرجع إليه في فنّه، ومركزًا يدار عليه فيه.[9] بل لقد تيسر له أن يبرز في القراءة ويصير إمام العامة والخاصة من النّاس فيها بحيث صاروا إلى قراءته، ورجعوا إلى اختياره وذلك في حياة بعض شيوخه.[10] مع علو مكانتهم وجليل قدرهم ومن أهمهم: أبو جعفر يزيد القعقاع وشيبة بن نصاح (ت130هـ) يقول الأصمعي:" مررت بالمدينة رأس مائة، ونافع رأس في القراءة."[11] وورد عن مالك أنّه قال:" ما عرف فضل شيبة وأبي جعفر إلّا بنافع لأنّ مادة قراءته منهما."[12]

إنّ شهرة نافع في الآفاق وعلو منزلته لم تأت من فراغ بل إنّ الرجل شهرته كانت من شهرة شيوخه، ومتانة علمه كانت من غزارة علوم الرجال الذين أخذ عنهم .فلقد عاش نافع في زمن لم تكن لأهله عناية بكتابة الفهارس والمشيخات وبرامج الروايات لهذا ضاعت أسماء شيوخه السبعين فلم يعرف إلّا قليل من المشاهير وأهمهم خمسة وهم الذين سماهم في أسانيد قراءته. قال أبو بكر بن مجاهد (ت324هـ)في كتاب السبعة:" فهؤلاء الذين ذكر نافع أنّه أدركهم بالمدينة من الأئمة في القراءة: عبد الرحمان بن هرمز(ت117هـ)، أبو جعفر بن يزيد بن القعقاع، شيبة بن نصاح، مسلم بن جندب (106هـ)، ويزيد بن رومان.(ت120هـ)[13]

روى الإمام الداني في الطبقات: بلغنا أنّ أبا الطفيل عامر بن واثلة (توفي سنة 100هـ وقيل 110 هـ) وعبد الله بن أنيس (ت54هـ) صاحبي رسول الله ﷺ صليا خلف نافع."[14] وروى ابن مجاهد عن اللّيث قال: حججت سنة عشر ومائة وإمام النّاس بالمدينة في القراءة نافع بن أبي نعيم.[15] وفي رواية أخرى عن الأصمعي يروي ابن مجاهد عن رجل قال: أدركت المدينة سنة مائة ونافع رئيس القراء بها وعاش عمرًا طويلًا."[16] وقال مكي بن طالب (ت437هـ): أقرآ النّاس في مسجد النبي ﷺ قبل سنة مائة من الهجرة."[17] وذكر كثيرون أنّه صلى في

المسجد النّبوي ستين سنة.[18] ومؤدي هذه الأخبار والروايات والشهادات أنّ جلوس نافع لطلبته، واستئثاره بالإمامة في القراءة في بلده مبكرًا وذلك بعد أن استوفى العقد الثالث من حياته أو كاد أي أنّه كان على موعد مع قرابة سبعين عامًا أو نيف من المجد العلمي. برئاسة إمامة الإقراء وإمامة الصّلاة بالمسجد النّبوي"[19] ومع الإمامة كان نافع يستقبل أفواج القراء والعارضين يوميّا من أهل الحجاز والشام والعراق مصر وبلاد الغرب الإسلامي. ومعنى ذلك أنّه تخرجت على يديه أجيال عديدة واستنفعت بعلمه جمهرة عظيمة من النّاس. فقد روى عنه القراءة سماعًا وعرضًا طوائف لا يأتي عليها العد من جميع أصقاع الدنيا ومن أشهر هؤلاء الإمام مالك بن أنس وإسماعيل بن جعفر بن وردان(ت180هـ) .وعيسى بن وردان الحذاء(ت160هـ) .وسليمان بن مسلم بن جماز(ت170هـ)، وهما ابن وردان وابن جماز راويا أبي جعفر .وإسحاق بن محمد المسيبي (ت236هـ) وأحمد بن عمر الواقدي(ت207هـ) .ويعقوب بن إبراهيم بن سعد(ت207هـ)، وأخوه سعد (ت127هـ) وإسماعيل بن أبي أويس (ت226هـ) وأخوه أبو بكر(ت202هـ) .وأبو عمرو بن العلاء (ت154هـ) أحد القراء السبعة .وعيسى بن مينا، قالون (ت220هـ) أحد راوييه .وعثمان بن سعيد ورش (ت 197هـ) الراوي الآخر عنه .ويعقوب بن جعفر، وعبد الله بن أبي الزناد(ت130هـ)، وعبد الملك بن قريب الأصمعي(ت216هـ)، والليث بن سعد(ت175هـ).

وإمامة نافع في القراءة وريادته في علومها كانت ممّا شهد به العلماء قديما وحديثا وهي من الأمور البارزة التي نجدها جلية في تلك المشاركة في غير مجال من مجالات علوم الرواية ومباحث علوم القراءة. وكما تجلى نبوغه وبلوغه درجة الاستقلال العلمي في اختياراته التي أخذ بها في القراءة تجلى أيضا في غير علم من علومها بسبقه في والتأليف والتدوين أو بالتنبيه على أصحابه على بعض مبادئه العامة، انسجامًا في ذلك مع معطيات العصر وثقافته، وإسهامًا من جانبه في رقي العلم بهذا الشأن وتقدمه، إذ كانت القراءات في عهد تصدره للإقراء قد أخذت بالتّدريج تتحول من فن قوامه النقل والسماع والحكاية الأمينة عن المشائخ، إلى علم خاص أصبح القارئ يخضع فيه لمجموعة من القواعد والأصول المتعارفة.[20]

ولم يكن من اليسير في ذلك العصر أن يتصدر المرء المجالس للإقراء إلاّ ببلوغه مرتبة علمية عالية، خاصة في المسجد النّبوي الذي تجمعت بين أرجائه علم النبوة والصّحابة

وقد حدد العلماء مقومات التّصدر للإقراء من أمثال مكي بن أبي طالب (437هـ) في الرعاية وأبي عمرو الداني (ت444هـ) في "الأرجوزة المنبهة" وأبي مزاحم الخاقاني (ت325هـ) في قصيدته المعروفة بـ"الخاقانية" في القراءة والقراء فقال النوري: لا يجوز لأحد أن يتصدر للإقراء حتى يتقن عقائده ويتعلمها على أكمل وجه ويتعلم من الفقه ما يصلح به أمر دينه، وما يحتاج إليه في معاملاته وأهم شيء بعد ذلك[21]:

- علم اللغة العربية من النحو والصرف يستعين بها على توجيه القراءات.
- علم التفسير والغريب ما يستعين به على فهم القرآن.
- علم التجويد وهو معرفة مخارج الحروف وصفاتها.
- علم الوقف والابتداء.
- علم الفواصل وهو فن عدد الآيات.
- علم الأسانيد وهي الطرق الموصلة للقرآن وهي أعظم ما يحتاج إليه.
- علم الابتداء والختم وهو الاستعاذة والتكبير ومتعلقاتها.

هذه أهم استمدادات علم القراءات والإمام نافع برع فيها، فمعرفته بعلوم اللّغة ووجوه الإعراب وأساليب البيان فيشهد لها ما يلاحظ في كثير من اختياراته من وجوه إعرابية خاصة، كما يلاحظ ذلك في بعض ما اختاره من مواقع الوقف والابتداء. وهو ما جعل نافع يرفع في اختياراته من صعيد الرواية المجردة إلى آفاق الدّراية الواعية. وهذا لا يتحقق ولا يتاح إلاّ من خبر المجال وكان له رسوخ في هذه الصناعة. حتى قيل عنه:" كان إماما في علم القرآن وعلم العربية.[22]

وإلى جانب فن القراءات فقد كان لنافع باع في مجال الحديث ورواية السُّنن. فقد أتيح له أن يتحمل عن كبار مشايخ العصر وفحول حفاظ السُّنة وأوعية الأثار النّبوية من أمثال ابن هرمز الأعرج (ت117ه) صاحب أبي هريرة (ت59ه) وابن شهاب الزهري (ت124ه) ونافع مولى ابن عمر(ت117ه) وعبد الله بن ذكوان المعروف بأبي الزناد (ت130ه) ممّا أتاح له التشبع بعلوم الحديث ورواية العديد منها، ومهما يكن من أمر فيمكن تصنيفه في قائمة المحدثين من الطبقة الثالثة من التابعين استنادا إلى المجموعة الحديثية التي صحت عنه.[23] ولعل قلة ما جاء عنه في رواية الحديث بالقياس إلى غيره ممن أدرك ما أدرك، لا يعود بالأساس إلى كونه من أهل البضاعة المزجاة في هذا العلم، وإنّما يعود إلى انصرافه إلى القراءة وعلومها، كما يعود إلى رعاية التّخصص من لدن المتحملين للرواية، فكانوا لا يقصدونه في غير فنّه ولهذا كان كما قال الليث بن سعد:" إمام النّاس في القراءة لا ينازع."[24] ولم يكن كما قال الحافظ الذهبي (ت748ه) "من فرسان الحديث."[25] وقال ابن عدي (ت365ه) في الكامل: له نسخة عن الأعرج نحو من مائة، وله نسخة أخرى عن أبي الزناد وله في التفاريق قدر خمسين حديثا ولم أرى له شيئا منكرا" ثم قال الذهبي: ينبغي أن يعد حديثه حسنا."[26] وقال ابن الجزري (ت833ه):" هو قليل الحديث،

مع أنّه روى عن نافع عن ابن عمر، وعن الأعرج (ت117هـ) عن أبي هريرة، ولكنّه تصدى للإقراء، ولم يخرج له شيء في الكتب الستة."[27]

لقد حظي الامام نافع بعلو المقام المحمود وكبير المنزلة وتبوأ في زمانه المنصب الرفيع حتى صار عَلَمًا لا يشق له غبار فتنافس الكبراء من أهل العلم وغيرهم في الزلفى إليه للاقتباس من نور علمه وقد زاده وقار الشيخوخة وجمال السّيرة، وطول العهد في إمامة الإقراء والصّلاة بالنّاس في المسجد النّبوي ستين سنة جلالة قدر وسيرورة ذكر ومحبة في القلوب. وبعد عمر طويل من البذل والعطاء أسلم الإمام نافع الروح إلى بارئها، وكانت وفاته في قول ابن مجاهد سنة 169 هجري، وقيل سنة سبعين بعد المائة وقيل سنة 159 هجري.[28] ودفن رحمه الله بالبقيع وكان قبره من المعالم المشهورة في مقبرة المدينة ومن المزارات المذكورة التي كان يحرص المغاربة على زيارتها عند زيارة المدينة المنورة. ويروي محمد بن اسحاق المسيبي عن أبيه قال:" لما حضرت الوفاة نافعا قال له أبتاه أوصنا، قال: فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين."[29]

2.2 . قراءة نافع ومنهجها:

مر علم القراءات بثلاثة أطوار شأنه شأن بقية علوم الرواية كالفقه والتفسير والحديث وغيرها وهذه المراحل هي:

أ– مرحلة السمع: وهي مرحلة التلقي والسماع من منبع النبوة عن طريق الصّحابة الكرام الذين سمعوا القرآن الكريم من الرسول ﷺ ثم من لدن من سمع منهم من التابعين.

ب– مرحلة الجمع: وهي التي قام بها كبار القراء والفقهاء الذين انصب عملهم على جمع الأحاديث والأثار الواردة في القرآن والتفسير من مصادرها الأولى.

ت–مرحلة التحرير والتمحيص: وفيها وقع تمحيص الروايات والآثار بالنظر في معانيها وتأويلها ودرجة ثبوتها ومعرفة صحيحها وسقيمها واستنباط الأحكام والقواعد منها وتدوين الاختيارات الخاصة بكل إمام. وهذه الاختيارات هي في الحرف وإذا اجتمعت فيها ثلاثة أشياء:

–قوة وجهه في العربية.

–موافقة المصحف.

–اجتماع العامة عليه

ونعني باجتماع العامة ما اتفق عليه أهل المدينة وأهل الكوفة وربما جعلوا العامة ما اجتمع عليه أهل الحرمين وربما جعلوا الاعتبار بما اتفق عليه نافع وعاصم، فقراءة هذين الإمامين أولى القراءات وأصحها سندا وأفصحها في العربية ويتلوها في الفصاحة خاصة قراءة أبي عمرو بن العلاء والكسائي. وإذا كانت هذه الاختيارات تبدو المنهج العام الذين سار عليه أصحاب الاختيارات بعد زمن السبعة الكبار يعني بعد أن أصبحت قراءاتهم نماذج تحتذى في مجال الموازنة بين أوثق وجوه القراءات.

فما هي اختيارات الإمام نافع خاصة؟ هل اكتفي بهذه المعايير الثلاثة أم تجاوزها إلى اعتبارات وعوامل أخرى؟

يبدو من خلال تتبع منهج الاختيارات عند الإمام نافع أنه كان أكثر صرامة من غيره من قراء الصدر وخاصة في مجال النظر في الأسانيد، وعناصر الاختيار عنده:

1) اعتماده على الرواية والنقل عن المشائخ في اختياراته لا على الاستحسان الشخصي أوالقياس اللّغوي والنّحوي حيث سلك منحى سلفه من الأئمة الذين أخذوا القراءة عن الصّحابة مباشرة عبر النقل الصحيح دون الغريب النادر الذي لا يثبت في الأثر والرواية يقول أبو بكر بن مجاهد (ت324هـ) شيخ قراء بغداد في زمنه:" ولم أر أحدا ممن أدركت من القراء وأهل العلم باللغة وأئمة العربية، يرخصون لأحد في أن يقرأ بحرف لم يقرأ به أحد من الأئمة الماضين وإن كان جائزا في العربية، بل رأيتهم يشددون في ذلك وينتهون عنه أشد النهي." وإلى نفس المعنى أشار الأندرابي (ت470هـ) فقال:" وكان مع علمه بقراءة القرآن ووجوه علومه يتبع النقل والآثر، ويتجنب القياس برأيه والنظر."

2) اشتراطه توافر عنصري الثقة والضبط في الرواية مع السلامة من كل يخدش أمانة الراوي أو يمس من سمعته وذمته، وهو أسلوب من التحري بالغ الدّقة ويحدثنا زميله في القراءة على أبي جعفر عبد الرحمان ابن زيد بن أسلم فقال: كنا نقرأ على أبي جعفر القارئ، وكان نافع يأتيه فيقول: يا أبا جعفر، ممن أخذت حرف كذا وكذا؟ فيقول: من رجل قارئ من مروان بن الحكم، ثم يقول: ممن أخذت حرف كذا وكذا؟ فيقول من رجل قارئ من الحجاج بن يوسف، فلما رأي ذلك نافع تتبع القراءة يطلبها." وصرامة منهج نافع هي الذي جعلته يتخلى عن حروف كثيرة مما كان يقرأ به شيخه أبو جعفر كما ذكر عنه الأصمعي قال: "تركت من قراءة أبي جعفر سبعين حرفا"

3) اشتراطه توافر الاستفاضة والشهرة البالغة في الحرف المختار وعدم شذوذه ومخالفته لقراءة الجماعة، فقد كان يشترط أن لا ينفرد الراوي بالحرف المقروء ولو كان ثقة ضبطا. حدث ابن مجاهد قال: أدركت هؤلاء الخمسة وغيرهم ممن سمى فلم يحفظ أبي أسماءهم، قال نافع:" فنظرت إلى ما اجتمع عليه اثنان منهم فأخذته وما شذّ فيه واحد تركته، حتى ألفت هذه القراءة في هذه الحروف." وقال الأندرابي كان نافع يقول: أدركت سبعين رجلا من التابعين، وقرأت عليهم، فما اجتمع عليه شخصان منهم أخذت، وما شذّ فيه واحد تركت، حتى جمعت الكتاب." وبهذه المنهجية يتوخى الإمام نافع التواتر العملي وما القراءة في المدينة إلاّ نوع منه توارثتها الأجيال جيل بعد جيل.

4) اشتراطه موافقة الوجه المختار في القراءة لرسم مصحف الجماعة تحقيقا أو تقديرا بعد ثبوت الاستفاضة في الأداء فقد أثر على الإمام نافع أنّه كان يثبت الزوائد في اللفظ، ويطرحها في الخط، تماشيا مع مذهب الجماعة. روى ابن مجاهد بسنده عن الأصمعي قال: سمعت نافعا يقرأ "والبادي" بياء فقلت لنافع هكذا كتابها؟ فقال لا.

5) اشتراطه أن يكون الوجه المختار في القراءة فصيحا ومأنوسا وبعيدا عن التقعر والتكلف والتّأويل البعيد فقد أتيح لنافع أن يجلس إلى كبار فصحاء زمانه من مشيخة قريش والأنصار وسواهم من أبناء الصّحابة وبلغاء القبائل الذين كان لهم في اللسن والبيان صيت ذائع، فلهذا كان لابد أن تجيء اختياراته في القراءة والأداء جارية على مذاهب الفصحاء من الحجازيين سائرة على المشهور المألوف من أساليب العرب. يقول الأصمعي: سألت نافعا عن "البئر" و"الذئب" فقال: إن كانت العرب تهمزهما فاهمزهما."

3.2 أسانيد نافع:

قرأ نافع المدني على سبعين من التابعين منهم: يزيد بن القعقاع(ت130هـ)، وعبد الرحمن ابن هرمز الأعرج(ت117هـ)، وشيبة بن نصاح القاضي(ت132هـ)، ومسلم بن جندب الهذلي(ت106هـ)، ويزيد بن رومان(ت12هـ)، وصالح بن خوات (ت 90/81هـ)، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري(ت124هـ). فأما أبو جعفر يزيد بن القعقاع فقرأ على عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي وحبر الأمة عبد الله ابن عباس وأبي هريرة. وقرأ الأعرج على ابن عباس وأبي هريرة وعبد الله بن عياش المخزومي.وقرأ مسلم وشيبة وابن رومان على عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي. وسمع شيبة القراءة أيضاً من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.وقرأ صالح بن خوات على أبي هريرة. وقرأ ابن شهاب الزهري على سعيد بن المسيب (ت94هـ)، وقرأ سعيد على ابن عباس وأبي

هريرة. وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وعبد الله ابن عياش بن أبي ربيعة على أُبي بن كعب. وقرأ عبد الله بن عباس أيضاً على زيد بن ثابت.وقرأ أُبي بن كعب وزيد بن ثابت وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم على النبي ﷺ.

4.2 أسلوب التلقي والتحمل في حلقة نافع

تتواتر المصادر التاريخية حول تصدّر الإمام نافع مجلس الإقراء في المسجد النّبوي في سن مبكرة فقد ذكر مكي بن أبي طالب فقال:" أقرأ النّاس في مسجد النبي ﷺ قبل سنة مائة من الهجرة." وقال الأندرابي:" وكان نافع قارئ أهل المدينة ومقرئهم في مسجد رسول الله ﷺ في حياة أبي جعفر وشيبة وغيرهما من التابعين، وإمامهم الذي تمسكوا بقراءته، واقتدوا به فيها من وقته وإلى وقتنا". ومؤدى هذه الأخبار والشهادات أنّ جلوس مالك لطلبته، واستئثاره بالإمامة في القراءة في بلده كان مبكرا، وذلك بعد أن استوفى العقد الثالث أو كاد أي أنّه كان على موعد مع قرابة سبعين عاما أو نيف من المجد العلمي، برئاسة إمامة الإقراء بالمدينة وإمامة الصلاة بالمسجد النّبوي، هذا إضافة للجهد اليومي في استقبال أفواج القراء والعارضين من أهل الأمصار من الحجاز والشام والعراق ومصر وإفريقية والأندلس وغيرها. وهو ما يعني أجيالا عديدة أنّ أجيالا مرت من حلقته وانتشرت في الأرجاء وهو ما يدفعنا للتعرف على أسلوب نافع في المجال.

استكمل نافع صفات المقرئ الإمام ونضجت شخصيته العلمية وظهرت موهبته في فن الإقراء بعد أن تمرس بمختلف العلوم والفنون الفقهية والأدبية واللسانية التي تتطلبها الإمامة والتصدر للإقراء. وفي أجواء الاحترام والأدب كان تعقد حلقة نافع بالمسجد النّبوي بعد الصبح يحكي القاضي عياض عن أحد تلامذة نافع وهو عبد الله بن نافع الزبيري(ت216هـ) قال: كنت أقرأ على نافع بن أبي نعيم بعد الصبح، فرفعت صوتي، فزجرني وقال: أو ما ترى مالكا؟، وهو ما عرفت من مالكا." واختيار نافع لهذا الوقت (بعد صلاة الصبح) جاريا مع ما كان العمل عليه عند المشيخة، وذلك بعد أن تكون النفس قد استراحت وأخذت حظها من الراحة والنوم، فتكون مقبلة مشرقة ويكون الدّرس أرسخ وأنجع. لقد كان أسلوب العرض على الشيوخ هو المعتمد في الحصول على الاعتراف والإقرار للقراء وإجازتهم في هذا العلم التزاما وتطبيقا إلّا أنّ الحصة في ذلك كانت تتناسب مع حال القارئ فهي تختلف بين المبتدئ والبارع وإن كان التقليد الإقرائي هو الاقتصار على خمس آيات لكل عارض وربما زاد إلى عشر بحسب الحال. فقد روى أبو العالية عن عمر بن الخطاب أنّه قال: تعلموا القرآن خمسا خمسا، فإنّ جبريل نزل به على النبي خمسا خمسا. "وروى عبد الرحمان بن مهدي عن أبي رجاء قال: كان أبو موسى الأشعري(ت103هـ) يعلمنا القرآن خمسا خمسا. وكان بعض المقرئين يأخذ بنظام العشر ائتساء بما جاء عن

عثمان (ت35هـ) وابن مسعود (ت32هـ) وأبي بن كعب عن النبي أنّه: كان يقرئهم العشر، فلا يتجاوزونها إلى غيرها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل." وكان في شيوخ نافع من كان يأخذ أكثر من ذلك فقد كان شيخه مسلم بن جندب (ت 106هـ) مثلا" يأخذ على أصحابه ثلاثين آية صباحا وثلاثين آية عشية، يقرؤها ثم يفسرها." ولعل نافعا قد استهوته هذه الحصة التي كان يأخذ بها جندب وأمثاله فأخذ بها، أي أنّ لكل عارض عليه أن يقرأ ثلاثين آية ثم يأذن لغيره وربما كان الأمر نزولا على رغبة العارضين عليه أو رعاية لحالهم إذ كانوا كما تروي الروايات كثرة بحيث لا يتسع زمن الحصن ليعرض كل واحد منهم ما يشاء. لاسيما مع اعتبار حال الغرباء العارضين عليه من أهل الأفاق ممن لا تتيح لهم الإقامة المؤقتة بالمدينة أن يقتصروا على خمس أو عشر من الآيات. ولهذا كان الإمام نافع ربما جرى مع بعض القراء في العرض على نمط خاص لا يتقيد فيه بحصة الثلاثين، رعاية لحال العارض.

وقد رتب نافع عملية العرض على سعي العارض بنفسه للحصول على الدور أول الناس عن طريق التبكير أو عن طريق المبيت بالمسجد مع الغرباء. وقد اقتضى هذا الازدحام عليه من الراغبين في تحقيق القراءة وأخذها عنه سماعا وأداء، طول الصحبة له واللزوم لمجلسه على غرار تلميذه وربيبه عيسى بن مينا (قالون) من بلوغ مدة قراءته عليه خمسين سنة" أما طريقة التحمل التي كان يأخذ بها فالظاهر أنّها كانت في مجملها مزيجا من السماع والعرض إلّا أنّ أكثر السماع فيها إنّما يكون سماع قراءة بعض العارضين على الشيخ بمحضره وإمّا سماع الشيخ نفسه فيظهر أنّه كان نادرا إلّا أن يكون تصحيحا أو توجيها. فإتباع نافع لأسلوب العرض لتمام التحمل بعد أن يكون القارئ قد سمع القراءة من الشيخ وغيره بمحضره وتمرن في حلقته على حسن أدائها هو الأسلوب المأخوذ به عند أئمة القراء خلفا عن سلف للحصول على الاعتراف من الشيوخ ولتمام الأهلية للتأدية عنهم فيما سبيله الرواية والنقل وهذا النمط من التحمل أوثق وجوهه وفيه أيضا إبقاء فسحة للقارئ في وجوه الأداء ليقرآ منها بما مرن عليه لسانه دون إلزام من الشيخ له ببعض تلك الوجوه طالما أنّها تدخل في إطار الضوابط المصححة للقراءة المتلقاة بالقبول عند أئمة القراء. على أنّ من طالت صحبتهم لنافع كتلميذه قالون قد حرصوا على أن يأخذوا عنه القراءة بالطريقتين السماع والعرض كما ضبطوها عنه أيضا بالتدوين والكتابة وتحققوا من اختياراته فيها.

يقول الامام قالون: " قرأت على نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم القارئ هذه القراءة غير مرة وأخذتها منه"

5.2 اختلاف الرواة عن نافع وأسبابه

عاش نافع طويلا وكانت فترة تصدره للإقراء والتدريس ممتدة جدا حيث تجاوزت السبع عقود ممّا جعل عدد طلاب القراءة لا يحصى فمنهم من صاحبه طويلا ومنهم من لم يتح له ذلك فاكتفى بالسماع منه أو بعرض قراءته عليه فكان بين الرواة عنه بسبب ذلك وغيره وجوه واسعة من الاختلاف في أصول الأداء وحروف القراءة مما يتوارد عليه الخلاف بين القراء. وكان نافع "عالما بوجوه القراءات متبعا لآثار الأئمة الماضين ببلده" وكان احتكاكه الدائم بالقراء ومراسه الطويل للإقراء قد وسّع من مداركه مع الزمن ونمى معرفته وأغنى خبرته باللغات والأساليب التي تكلمت بها العرب الفصحاء في حواضرها وبواديها فكان يتعامل مع الطلاب العارضين من هذا الأفق الرفيع والمستوى الخصب الذي يتقبل بصدر رحب لهجة الراوي وروايته طالما أنّها لا تجافي الفصاحة المطلوبة في القراءة ولا تصادم النقل الصحيح وانطلاقا من هذا المبدأ لم يكن نافع يجترئ على رد قراءة غيره أو يتعصب لاختياره بل كان، "يسهل القرآن لمن قرأ عليه إلّا أن يقول له الإنسان أريد قراءتك." ويحكي أحد تلاميذه: "سافرت بكتاب اللّيث إلى نافع لأقرأ عليه فوجدته يقرئ النّاس بجميع القراءات فقلت له: ما هذا يا أبا رؤيم؟ فقال لي: سبحان الله: أأحرم ثواب القرآن أنا أقرئ النّاس بجميع القراءات حتى أذا كان من يريد حرفي أقرأته به." ومعنى هذا أنّه يترك القارئ يقرأ عليه بما اعتاده من الوجوه تيسيرا عليه فتكون قراءته عليه بذلك رواية على سبيل الإقرار لا على سبيل الاختيار وبذلك تختلف الروايات عنه باختلاف العارضين .فمثل هذه المرونة كان نافع يتعامل مع العارضين عليه ولاسيما فيما يرجع إلى طرق الأداء التي تخضع كثيرا لعادة القارئ في النطق بالكلمات في لهجته فيما يتعلق بالهمز والتخفيف والفتح والإمالة والإظهار والإدغام ونحو ذلك إذ كان الأئمة لا يأخذون على القارئ بما قد لا يقوى عليه ولا يطوع به لسانه في الأداء سيرا على ما كان يسلكه أهل الفصاحة من التوسع في اللغة ووجوهها والإبقاء على قدر من المرونة فيها.

3. عوامل انتشار واعتماد قراءة نافع في الغرب الإسلامي

1.3 القراءات المتداولة في الغرب الإسلامي قبل دخول قراءة نافع

ارتبط تاريخ القرآن الكريم وانتشاره في الأمصار بحركة الفتوحات الإسلامية، فكانت الدعوة لكتاب الله شعار الفاتحين من الصّحابة والتابعين. فسارت آيات القرآن الكريم حيثما سارت رايات الجهاد والفتح. فكان القرآن يتقدم الجيوش وعلى هديه وتعاليمه سارت الأمة، فلازم المصحف السيف حتى فتحت القلوب والبلدان والتفت الناس حوله تَعلمًا وتَفقهًا في أحكامه، جريًا على هدي النبي ﷺ والصّحابة من بعده. فهذا عمر الفاروق يبعث إلى الولايات بالشام والعراق قائلا:" إنّما بعثت عُمالي إليكم ليعلموكم كتاب ربكم وسنّة نبيكم."[30]

دخل القرآن الكريم بلاد الغرب الإسلامي مع الفاتحين، وكان من أول الفاتحين لهذه الربوع ذلك الجيش الذي قاده عمرو بن العاص (ت43هـ) سنة 21 هجري وكان عمرو نفسه من المعدودين من القراء وممن وردت عنه الرواية في حروف القرآن.[31] ثم أعقبه عبد الله بن سعد بن أبي سرح (ت36هـ)، وقد ذكر أبو العرب (ت333هـ) في طبقات علماء إفريقية أنه كان عدته عشرين ألفاً أكثرهم من الصّحابة' وكان ممن دخل مع أبي سرح من الصّحابة عبد الله بن الزبير(ت73هـ) وعبد الله بن عباس (ت68هـ) وغيرهم.[32] ثم غزا الغرب الإسلامي جيشٌ آخر بقيادة معاوية بن خديج (ت52هـ)، وهو صحابي كان معه جماعة من الصّحابة في هذا الغزو كعبد الله بن عمر(ت73هـ) وأبي زمعة البلوي (ت34هـ)، ومن المعروف أن عبد الله بن الزبير كان من كَتَبة مصحف عثمان وأن عبد الله بن عمر وابن عباس يُعَدَّان من جُمَّاع القرآن الكريم وقد كان لكل منهما مصحفه الخاص الذي دوَّن فيه القرآن الكريم حسب ما سمعه من النبي ﷺ أومن قراء الصّحابة الآخرين.[33] إلا أن التاريخ اهتم بصورة أكبر بفتح عقبة بن نافع (ت63هـ) لبلاد الغرب الإسلامي، ويبدو أن امتداد آثار هذا الفتح كان من أسباب هذا الاهتمام، فقد كان من أهم أسباب امتداد آثار هذا الفتح هو اهتمام عقبة بن نافع بتعليم القرآن لأهل المغرب، إذ ترك حين أراد العودة إلى المشرق جماعة من أصحابه يعلمون الناس القرآن ويفقهونهم في الدين، وجعل على رأسهم شاكر بن عبد الله الأزدي صاحب الرباط المشهور على مراحل من مراكش.[34] وكان القرآن الكريم طيلة تلك المراحل محفوظا في الصدور ومكتوبا في السطور وكان يقدم راية الجهاد حيثما توجهت ويستأثر بأوقات الفاتحين تعلما وتعليما وتلاوة وتهجدا.[35]

وهكذا كان تواصل أهل العرب الإسلامي عموما بالقرآن الكريم عبر تلك المجموعة من قراء الصّحابة والتابعين وما حملوه معهم من قراءات وفقه وتفسير حيث كانوا هم المقرئون والمعلمون والموجهون والمرشدون والمفسرون والمبلغون. وكانت القراءات في بلاد الغرب الإسلامي كغيرها من الأمصار (التي أصبحت جزء من دار الإسلام) تسير في مسار واحد اقتضته التطورات التاريخية من جهة وما اقتضته التطورات الداخلية الخاصة بعلم القراءات وتحول القراءة إلى صناعة واختصاص.

كان الرعيل الأول من القراء من الصّحابة والتابعين الذين دخلوا أرض المغرب الإسلامي فاتحين ودعاة معلمين ومقرئين، يقرأ القرآن ويقرئ بالحرف الذي تلقى به القرآن عن النبي محمد ﷺ مباشرة أو تلقاه من قراء الصّحابة، ولا يعني القارئ منهم أن تكون قراءته موافقة لما عند غيره أو مخالفة. وعلى هذا الأساس كانت قراءات الذين دخلوا الغرب الإسلامي مُبكرا تختلف فيما بينها في كثير من حروف القراءة وكيفيات الأداء فقراء ذلك العهد الأول لم يكونوا يهتمون كثيرا بالوقوف على مظاهر هذا الاختلاف لمعرفتهم أنّ القرآن الكريم نزل على سبعة

أحرف وأنّ الرسول ﷺ أقرّها جميعا وأذن لكل قارئ أن يقرأ كما علم.[36] إذ لم يكن القراء في هذه المرحلة يهتمون بجمع الروايات المتعلقة بالحروف والموازنة بينها لاختيار ما هو أيسر أداء أو أشهر أو أفصح أو غير ذلك، فهؤلاء الذين سميناهم من الصّحابة والتابعين هم الذين يحكى عنهم عظم القراءة وإن كان الغالب عليهم الفقه والحديث.[37] وينبني على هذا التصور التسليم بأنّ الذين أسهموا في نشر القرآن وتعليمه في الغرب الإسلامي من الصّحابة ومن أخذ عنهم من التابعين "لم تكن تجمعهم قراءة معينة، وإنّما كانوا يقرأون على أنحاء كثيرة وأنماط أدائية متعددة بتعدد مصادر الأخذ والتلقي، الأمر الذي يتأتى معه القول بتعرف هذه المناطق على معظم ما هو متداول لهذا العهد من حروف القراءة وما رسم من ذلك في مصاحف الصّحابة كما يمكن القول أيضا باطمئنان بتعرفها خاصة على حروف أهل المدينة وأهل الشام وأنّ هذه الحروف سرعان ما غدت متداولة في القراءة عند جمهور القراء والمتعلمين لعدة أسباب:[38]

- بالنسبة لحروف أهل المدينة، فإنّ عامة الصّحابة القراء الذين رافقوا جيوش الفتح وكانوا يقومون على الإقراء، كانوا مدنيون أو قرأوا بالمدينة.
- بالنسبة لحروف أهل الشام، فإنّ فتح هذه المناطق كان على أيدي الدولة الأموية بالشام فكانت عامة المؤثرات في القراءة والشؤون العامة شامية، بما في ذلك بعثات التوجيه والإقراء التي تصاحب الجند.
- سعي الدولة الأموية إلى توحيد القراءة وحروفها على وفاق المصحف العثماني وخصوصا في إمارة الحجاج بن يوسف.

ولكن هذا لا يمنع القول بأنّ القراءة بالحروف الشّاذة التي تخالف "المصحف الرسمي العثماني "قد استمرت في ربوع الغرب الإسلامي. وهو ما يعني أنّ أصداء تلك الروايات التي جلبها الصّحابة والتابعين في شواذ الحروف قد ظلت معروفة في قراءة الآخذين عنهم ولا يرون حرجا في القراءة بها فيروى أنّ أبان بن عمران النخعي قال:" قلت لعبد الرحمان بن الأسود (ت75هـ)، وهو من التابعين الذين غزوا إفريقية مع عبد الله ابن أبي السرح) إنّك تقرأ " صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضآلين"[39] وهو ما يعنى أنه يقرآ بحروف شاذة تخالف قراءة الجمهور وهي قراءة لأبي بن كعب (ت30هـ) وابن مسعود (ت32هـ) وعمر بن الخطاب(ت23هـ)[40]

تشير المصادر التاريخية إلى تعدد بعثات الإقراء الرسمية التي انتدبت لمرافقة الجند أثناء فتح الغرب الإسلامي أو بعده ولا شك أنّ البعثات الأولى كانت تتولى الدعوة والإرشاد أكثر من اهتمامها وتفرغها لتلقين القرآن ولهذا فلا يمكن الحديث عن أثرها في القراءة والسعي إلى توحيدها على نمط معين ولهذا فيمكن أن تكون القراءة ظلت

مطلقة على مصاحف الصّحابة الذين شهدوا زمن الفتح كابن عباس وابن عمر وابن زبير وعبد الله بن عمرو، أو على مصاحف الفاتحين كعقبة بن عامر(ت58هـ) أو عقبة بن نافع وغيرهم. والبعثة الوحيدة التي تميزت بأثرها في توحيد القراءة على وفق المصحف العثماني هي بعثة عمر بن عبد العزيز (ت101هـ) وذلك لوصولها على رأس المائة الأولى من الهجرة وهو زمن قطعت فيه القراءة الرسمية شوطا بعيدا في الأمصار الإسلامية باتساع جمهورها وبداية ظهور الأئمة الكبار الذين " تجردوا للقراءة واشتدت بها عنايتهم ولها طلبهم." وهذه الدعوة الرسمية لتوحيد القراءة من طرف الدولة الأموية كان لها انعكاس على الولايات الغربية (الغرب الإسلامي) بحكم التبعية السياسية وهيمنة العناصر الشامية في زمن بني أمية سواء في معسكرات الجند أو على صعيد البعثات والهيئات التعليمية. فالغالب أن من أهداف البعثة العمرية كان توحيد القراءة وتوجيه القراء إلى حفظ القراءة العامة التي عليها جمهور الأمة في الشرق الإسلامي. وهي بالتّالي قد ساهمت في وضع اللبنات الأولى لصرح المدرسة القرآنية في الغرب الإسلامي. فقد زوّد الخليفة عمر بن عبد العزيز مناطق الغرب الإسلامي بعشرة من خيار فقهاء التابعين لتفقيه أهلها وإقرائهم القرآن وهم:

1. إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر القرشي المخزومي، والي إفريقية في عهد عمر بن عبد العزيز وهو أحد العشرة التابعين، ظل مقيما بالقيروان ثلاثين سنة مشتغلا بالتعليم والإقراء، أسلم على يديه خلق كثير، اقترن اسمه بالقراءة الجماعية للقرآن، حيث كان يدرس القرآن جماعة في بلاد الشام ، ولا يستبعد أن يكون دخول هذا النمط من القراءة من التعليم إلى إفريقية ابتداء من هذا العهد، وقد تكون دخلت أيضا عن طريق العناصر الشامية التي كانت تتدفق على إفريقية والأندلس دون انقطاع، ويذكر ابن عذاري وغيره أنّه في دفعة واحدة" خرج مع كلثوم بن عياض اثنا عشر ألفا من الشام سنة 123هـ على عهد هشام حين ولّاه إفريقية.[41] وإذا ثبت هذا الأمر فإنّه يدل حتما عن وجود قراءة جامعة يقرأ بها القراء المجتمعون على هذا النمط الجديد من القراءة (القراءة الجماعية) وهو ما يعني أنّ القراءة الشامية هي المرشحة بحكم غلبة العناصر الشّامية وكون الأمراء على إفريقية والأندلس ينتدبون منها وكون اسماعيل بن أبي المهاجر كان واليّا وقارئا وواحدا من أعضاء البعثة العمرية. والأرجح أن تكون قراءة إمام أهل الشام عبد الله بن عامر اليحصبي (ت 118هـ) وهو شيخ إسماعيل بن أبي المهاجر، توفي سنة 132هجري.
2. بكربن سوادة الجذامي (ت 128هـ)

3. أبو ثمامة بكر بن سوادة الجذامي المصري الشامي الأصل، روى عن جماعة من الصّحابة وكان فقيها مفتيا سكن القيروان توفي سنة 128هـ.
4. جعثل بن عاهان بن عمير أبو سعيد الرعيني المصري(ت115هـ) ولي قضاء الجند بإفريقية لهشام بن عبد الملك وكان أحد القراء الفقهاء، ومن الطرف أنّه وحده من بين أفراد البعثة نعت بالقارئ" وكان من المختصين بمعاذ بن جبل
5. حبان بن أبي جبلة القرشي المصري روى عن جماعة من الصّحابة سكن القيروان وانتفع به أهلها وعدّه البعض من الصّحابة، توفي بالقيروان سنة 125هـ.
6. سعد بن مسعود التجيبي المصري، صاحب جماعة من الصّحابة وروى عنهم، من القراء العشرة.
7. طلق بن جابان الفارسي: معدود في العشرة من التابعين، قدم القيروان بعد إقامة طويلة في مصر حتى تفقه أهلها.[42]
8. عبد الرحمان بن رافع أبو الجهم التنوخي المصري: سكن القيروان وانتفع به خلق كثير ولّاه موسى بن نصير سنة 80 هـ القضاء، توفي بالقيروان سنة 113هـ.
9. عبد الله بن يزيد أبو عبد الرحمان الحبلي المعافري: كان من أحسن الناس صوتا بالقرآن[43] توفي بالقيروان سنة 100هـ.
10. موهب بن حي المعافري، أحد العشرة من التابعين، صحب ابن عباس، سكن وتوفي بالقيروان

ومن الملاحظات المهمة التي وجب الإشارة إليها فيما يخص بدايات الإقراء:

- إنّ حملات الفتح التي قصدت أراضي المغرب الإسلامي كانت بدايتها مع عمرو بن العاص (ت43هـ) فبعد أن أتم فتح الاسكندرية سنة 21 هـ سار بجيشه غربا لفتح طرابلس فمر ببرقة ففتحها صلحا ولم يبد أهلها اي مقاومة. ولما كان ببرقة أرسل عمرو جيشا من المسلمين بقيادة عقبة بن نافع ففتح زويلة عاصمة فزان سنة 22 هـ، وفي طريقه إلى طرابلس فتح سرت ولبدة ولم يجد فيهما مقاومة. وفي أثناء محاصرته لمدينة طرابلس أرسل عمرو جيشا بقيادة بُسر بن أبي أرطاة ففتحها سنة 23 هـ، إلّا أنّ أهلها ارتدوا وبقوا على ردتهم إلى أن فتحها عقبة بن نافع سنة 49هـ. وبعد طرابلس تمّ فتح صبراتة. وبفتح ليبيا انتهت الحملة الأولى للفتح الإسلامي وانتهت ولاية عمرو بن العاص على ليبيا ورجع إلى مصر سنة 23 هـ،[44] بعد أن ترك عقبة بن نافع في برقة واليا عليها وعلى طرابلس. وقبل فتح إفريقية وتأسيس

القيروان كانت طرابلس وبرقة وبقية المدن الليبية التي لم ترتد عن دين الإسلام هي مدار نشاط الدعاة والجنود التي بقيت مع عقبة بن نافع تنشر الإسلام وتعلم القرآن وسوف تتعزز هذه الجهود بالحملات التالية.

- بفتح إفريقية وتأسيس مدينة القيروان سيتحول الثّقل ومدار الحركة العلمية ونشاط الدعاة إلى عاصمة إفريقية "القيروان" التي ستتحول إلى قطب ثقافي وقبلة العلماء والمتعلمين تشد لها الرحال خاصة من المدن المجاورة. وفي طليعة القراء الكبار الذين كانت تروى عنهم القراءة وتؤخذ عنهم (أبو رشدين حنش بن عبد الله السبائي الصنعاني (ت 100هـ)، روى عن جماعة من الصّحابة منهم علي بن أبي طالب (ت40هـ) وابن عمر وابن العباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبو الدرداء(ت32هـ) ورويفع (ت56هـ). وقد كان مع علي في الكوفة وبعد مقتله قدم مصر ورافق رويفع في حملته على إفريقية وكان من أقدم الأطر العلمية في المنطقة، حيث أنّه كان قد عرف أكثر من قراءة من قراءات الصّحابة وكان له مصحف خاص فيكون في قراءته قد اختار من مروياته حروفه الخاصة به. لاسيما بعد ظهور المصاحف العثمانية.
- بعد جمع القرآن وتدوينه انطلق مشروع توحيد القراءة والذي جرى تنفيذه زمن خلافة عثمان، حيث جرى حصر الحروف المتداولة بين القراء في دائرة المرسوم في هذه المصاحف التي أرسلت إلى الأمصار المشهورة وأرسل عثمان معها مبعوثين رسميين يقرئون النّاس بما فيها من حروفه لا يتجاوزونه إلى غيره.[45] وكان الغرب الإسلامي يومئذ في بداية تكوينه العلمي، رغم ما يصله من أصداء ذلك بما تسمح به الصلات النسبية بينه وبين الجهات الشرقية سواء من حيث التبعات السياسية أم من حيث الاستفادة ممن كان يرد عليه من شخصيات علمية ودعاة أو من كان يشد الرحال إليه لطلب العلم. فكان الجهد في تلك البدايات محصور في الوقوف على ما سائد في الشرق من علوم شرعية واستيعابه ونقله بكامل الأمانة إلى بلاد المغرب الإسلامي. يمكن اعتبار الرحلات العلمية نحو المشرق في هذا المضمار والتي كانت أهدافها تدور حول أداء فريضة الحج ولقاء المشيخة والاغتراف من علومها. ثم إنّ مناطق الغرب الإسلامي كانت مسرحا لتعاقب مختلف المؤثرات عليها وذلك بحكم اختلاف التبعات السياسية حيث كانت بادئ الأمر تابعة لبلاد مصر ثم أصبحت تابعة لدار الخلافة بالشام وبسقوط الدولة الأموية تحولت تبعيتها إلى الخلافة العباسية بالعراق وهو ما حوّل اتجاه الرحلة إلى هذه الأفاق وبالتّالي استجلاب مذاهبها في الفقه والقراءة. ويتجلى تأثير المدارس العراقية من خلال ما جلبه طلاب العلم (من أمثال

عبد الرحمان بن زياد بن أنعم والبهلول بن راشد الحجري (ت183هـ)وعلي بن زياد(ت183هـ) وابن أبي حسان وأسد بن الفرات (ت212هـ) وعبد الله بن غانم (ت190هـ) وعبد الله بن فروخ الفارسي(ت175هـ) وعنبسة بن خارجة الغافقي(ت210هـ) ومعاوية الصمادحي وغيرهم ممن اخذوا العلم على مالك وسفيان الثوري(ت161هـ) والليث بن سعد(ت175هـ) وأخذوا القراءة على سيبويه(ت180هـ) الذي كان أحد رواة قراءة أبي عمرو بن علاء البصري(ت154هـ)(أحد السبعة) أو الكسائي علي بن حمزة (ت 189هـ، وهوأحد السبعة) ولاسيما قراءة حمزة بن حبيب (156هـ)إمام أهل الكوفة وأحد القراء السبعة.

2.3 دخول قراءة نافع إلى الغرب الإسلامي وروادها

بعد موت كبار علماء مدرسة الكوفة الذين كانت تشد إليهم الرحال للتزود من علومهم من أمثال سليمان بن مهران الأعمش (ت 148) وحمزة بن حبيب الزيات (ت 156) وسفيان الثوري (ت161هـ) اتجهت الأنظار إلى مدرسة المدينة المنورة حيث كان الإمام مالك بدأت شهرته تخترق الآفاق في الفقه والإمام نافع قد تربع على علم القراءات في تلك الربوع وذاع صيته في الأمصار فكانت حلقات مالك ونافع تجمع روادها بين الأقطار الإسلامية من إفريقية والأندلس ومصر والشام والعراق واليمن وخرسان وغيرها.[46] وقد ساهمت رحلة الطلاب للحج للجمع بين أداء مناسك الحج والاستزادة من علوم مدرسة المدينة في الفقه والحديث والإقراء. فكانت حلقة نافع بن أبي نعيم في المسجد النّبوي لا تقل عن حلقة مالك الفقهية في الكثرة والازدحام ونوعية العارضين للقراءة عليه من أقطار البلدان الإسلامية فكان الطلاب يتنقلون بين حلقة نافع ومالك وبهذا يمكن اعتبار الجم الغفير من رواة الفقه المالكي الذين تلقوه عن مالك ما بين تصدره للتدريس حوالي سنة (117 هـ) ووفاة نافع (169 هـ) هم في نفس الوقت من رواة قراءة نافع ولاسيما إذا اعتبرنا قيام نافع بإمامة النّاس في الصلاة بالمسجد النّبوي ستين سنة وبهذا يكون أدنى ما سيأخذه رواد هذا المسجد من قراءته ما سمعوه منه في أثناء الصلوات.

وبناء على هذا يمكن القول أنّ الرواية عن نافع قد دخلت الغرب الإسلامي مع هؤلاء الأفواج التي تدخل سنويا المدينة المنورة للزيارة أو لطلب العلم (وهم الذين يطيلون المقام بها). وبهذا يمكننا الربط بين تاريخ الرحلات العلمية إلى المدينة وحركتها وبين تعرف المناطق الغربية على قراءة نافع. وإذا كانت إفريقية قد عرفت مذهب مالك

بن أنس قبل رحلة سحنون (سنة 188 هـ) لأنّه رحل منها أكثر من ثلاثين رجلا كلهم لقي مالك بن أنس وسمع منه."[47] فهذا يقتضي أن لا يقل عدد من تشرفوا بالعرض على نافع من أهل هذه الجهات عن هذا العدد[48] ورغم أنّ المصادر التاريخية ركزت في الغالب على الفقهاء أو الصفة الفقهية لهؤلاء الرجال فإنّ ذلك من باب نسبة الأمر إلى ما غلب عليهم وعلى شخصياتهم في ذلك العهد إذ لم يكن التّصدر لإقراء القراءة الخاصة قد أخذ طريقه بعد، فكان انصراف تلك الكوكبة الأولى من الفقهاء العائدين بالرواية عن أهل المدينة إلى نصرة المذهب المالكي والتمكين له قد اقتضى منهم نوعا من التفرغ له وهو ما كان في كثير من الأوقات على حساب مهمة الإقراء. ولكن رغم ذلك الأمر فقد أفاد الروايات الجديدة التي بدأت تشق طريقها في تلك الربوع. واعتبر القاضي عياض أنّ إفريقية وما وراءها من بلاد الغرب الإسلامي: "كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين، إلى أن دخل على بن زياد وابن أشرس والبهلول بن راشد وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك، فأخذ به كثير من النّاس ولم يزل يفشو إلى أن جاء سحنون فغلب في أيامه، وفض حلق المخالفين واستقر المذهب في أصحابه فشاع في تلك الأقطار."[49] وإذا كانت القائمة طويلة للذين حضروا حلقات الإمام مالك والإمام نافع في المسجد النّبوي وتزودوا بعلمهما وانتشروا بها في أرجاء الغرب الإسلامي فإنّ الامام سحنون كان نقطة مضيئة ولحظة هامة لتحول موازين القوى لصالح المدرسة المالكية المدنية ودوره مهم لترسيم مذهب أهل المدينة بإفريقية والمغرب الإسلامي في الفقه والقراءة حيث أصبحت القيروان في عهده مدرسة للمالكية وقبلة لطلاب العلم من المدن المجاورة من مثل طرابلس وخاصة من بلاد المغرب الأوسط والأقصى والأندلس. ففي عهد تصدره ما بين عودته من رحلته سنة 191 هـ وبين وفاته 240 هـ تمت النقلة العظيمة في إفريقية والجهات التابعة لها إلى مذاهب أهل المدينة وتمّ وضع الأسس العتيدة لها بالمنطقة. فالإمام سحنون هو من دعا إلى اعتماد قراءة نافع في الإقراء[50] وأوصى بها وهو ما يعني أنّها قراءته المختارة وقراءة أصحابه ويعني أيضا أنّ قراءة نافع أصبح لها جمهور معتبر في أيام سحنون إلّا أنّ المنافسة ما تزال بينها وبين غيرها من القراءات ، وبالأخص بينها وبين قراءة حمزة والتحول الآخر العميق سيكون على يد محمد بن خيرون (ت 306هـ) الذي قدم بقراءة نافع على أهل إفريقية فنزل بالقيروان. قال ابن الفرضي:" وهو (بن خيرون) الذي قدم بقراءة نافع على أهل إفريقية وكان الغالب على قراءتهم حرف حمزة ولم يقرأ لنافع إلّا خواص الناس."[51] والراجح أنّ انتشار قراءة نافع بالغرب الإسلامي كان قبل هذا الوقت الذي حدّده ابن الفرضي وهذا الانتشار كان على زمن سحنون ثم تزايد الإقبال عليها من لدن الجمهور بتدخل من السّلط القضائية لصالحها على عهد ولاية سحنون للقضاء سنة 234 هـ ثم بلغ الأخذ بها مداه على عهد المتولين للقضاء من أصحابه. فقد ذكر أبو عمرو الداني:" أنّ ابن طالب أيام قضائه أمر برغوث المقرئ(ت272هـ) بجامع القيروان ألّا

يقرئ النّاس إلّا بحرف نافع."[52] وتعتبر ولاية ابن طالب القضاء هو بداية ترسيم قراءة نافع في إفريقية وما دخول ابن خيرون بها في هذا العهد أو قريبا منه إنّما كان استجابة لهذه الرعاية التي لمسها في المنطقة لهذه القراءة لاسيما وهو غريب الدار (أندلسي)

أما الريادة الأولى في إدخالها الغرب الإسلامي فقد بدأت في عهد مبكر جدا على المستوى العادي الذي يكتفي بسماع القراءة دون عرض على القارئ ممن حضروا حلقات نافع في المسجد النّبوي من أهل إفريقية. أمّا الريادة الثانية على المستوى العالي: مستوى الرواية والعرض على نافع والتحمل الكامل عنه فقد استأثر بها رجلان:

- أبو يحي زكريا بن يحي المعروف ب «الوقار"(ت 254هـ) وهو مصري نزل بإفريقية وقرأ على نافع[53] وعنه أخذ أبو عبد الرحمان المقرئ (ت212هـ)...وأوطن طرابلس[54] قدم إفريقية سنة 225 وهو يعتبر أحد رواد قراءة نافع الأولين بليبيا وإفريقية ممن أخذوا عنه مباشرة. أمّا الآخذون عنه فمنهم ابنه أبو بكر بن أبي يحي الوقار (الذي كان إماما فقيها حافظا نظارا) ومنهم سهل بن عبد الله بن سهل القبرياني وإبراهيم بن داود بن يعقوب نزيل طرابلس. ونستطيع أن نقول أنّ "الوقار" وتلميذه ابراهيم بن داود بن يعقوب هما رواد قراءة نافع بليبيا ومنهما انتشرت هذه القراءة. وأهم أصحابه هو محمد بن برغوث القيرواني المقرئ متصدر بجامع القيروان أخذ القراءة عن أبي يحي "الوقار"، روى عن نافع بن أبي نعيم وسمع من أسد بن الفرات توفي سنة 272 هـ ويعتبر من الرعيل الطيب الذي انجبته إفريقية في طليعة مدرسة نافع بها.
- كردم بن خالد أو خليد التونسي: ذكره ابن مجاهد في الرواة عن نافع في أول كتاب السبعة:" وكردم رجل من أهل الغرب الإسلامي)[55] وذكره الذهبي في أصحاب نافع[56] وقال ابن جوزي " قدم المدينة وعرض على نافع وكان زاهدا عابدا فاضلا. "وقد كان من العشرة المشهورين بالنقل عن نافع.

3.3 أسباب هيمنة قراءة نافع في الغرب الإسلامي:

ساهمت مجموعة من العوامل في انتشار قراءة نافع بالغرب الإسلامي وجعلت منها القراءة الرسمية والمهيمنة على حلقات الإقراء في المنطقة واستطاعت بعد أن أزاحت القراءات الأخرى وخاصة قراءة حمزة وقراءات المدرسة العراقية بعد منافسة استمرت لعقود وأبرز هذه العوامل:

أ. **رحلات الحج**: كانت رحلات الحج تتوج عادة بزيارة الحرم المدني للصلاة في المسجد النّبوي وزيارة الروضة الشريفة وهذا الأمر يستتبع التواصل بعلماء المدينة الذّين انتشرت حلقاتهم العلمية بين جنبات المسجد النّبوي. قال على المديني:" حججت حجة وليس لي همّ إلّا أن أسمع."[57] فالمدينة كانت دار العلم ووريثة علم النبي ﷺ والصّحابة. وكان الإمام نافع سلطان القراء فيها وإمام المسجد النّبوي الذي يصلي بالنّاس لستين سنة.

ب. **الرحلات العلمية**: كانت المدينة المنورة تشد لها الرحال لطلب العلم لكثرة علمائها ونبوغهم العلمي وساعدت زيارة أرض الحجاز أهل الغرب الإسلامي للتعرف على مذهب مالك في الفقه ومذهب نافع في القراءات

وتروي الروايات التاريخية أنّ أهل القيروان جمعوا مسائلهم وأوفدوا بها رسولهم إلى المدينة المنورة خالد بن أبي عمران التجيبي (ت129هـ) فالتقى بسالم بن عبد الله بن عمر (ت 106هـ) والقاسم بن محمد بن أبي بكر (ت101هـ) فسألهما فيما حمل من أهل القيروان فأبيا أن يجيباه، فحملهما مسؤولية أمانة العلم قائلا: " إنّا بموضع جفاء ببلاد المغرب، وإنّهم حملوني هذه المسائل وقالوا لي: إنّك تقدم المدينة وبها أبناء أصحاب النبي ﷺ فسلهم لنا، وإنّكما إن لم تفعلا كانت حجة لهم، فأجاباه لذلك." ثمّ تتالت الرحلات إلى المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشّام ومصر فرحل علي بن زياد التونسي (ت183هـ) إلى المدينة المنورة وسمع الموطأ من مالك بن أنس وسمع كتابين في الحديث هما الجامع الكبير والأوسط من صاحبهما سفيان الثّوري إمام الكوفة، كما رحل أبو خالد عبد الرحمان بن زياد بن أنعم الإفريقي إلى المشرق ثلاث مرات، فأخذ عن زياد بن نعيم الخضرمي بمصر وعبادة بن نسبي بالشام وقصد الكوفة فسمع من علمائها.

ورحل عبد الله بن فروخ الفارسي فأخذ من فقهاء التابعين وأتباعهم بالمدينة والعراق وجلس في جامع عقبة أكثر من عشرين سنة يعلم النّاس الفقه والحديث. ورحل عبد الله بن عمر بن غانم الرعيني برفقة أبي عثمان حاتم بن عثمان والبهلول بن راشد إلى الإمام مالك.

ورحل أسد بن الفرات بعد أن سمع موطأ مالك من علي بن زياد في رحلة دامت 17 عاما ثم درّس في جامع عقبة وقد أقبل عليه الطلبة من إفريقية والمغرب والأندلس.

ورحل عنيسة بن خارجة الغافقي فسمع من مالك وسفيان الثوري واللّيث وعبد الله ابن وهب، وسفيان بن عيينة، توفي سنة 210هـ.

أمّا سحنون بن سعيد التنوخي فقصد مصر في رحلة أولى ولم يجاوزها لقلة الدراهم وفي رحلة ثانية دامت خمس سنوات سمع خلالها بالمدينة من جماعة من العلماء مثل أنس بن عياض اللّيثي والمغيرة بن عبد الرحمان بن أبي ربيعة

كما سمع في مكة من سفيان بن عيينة وعبد الرحمان بن مهدي ووكيع بن الجراح وسمع بالشام من الوليد بن مسلم وغيره وسمع من أبي داود الطيالسي صاحب المسند وحفص بن غياث القاضي وغيرهما من علماء الكوفة والبصرة. وذكر محمد بن الحارث الخشني أنّه قبل سحنون (ت240هـ) رحل أكثر من 30 رجلا كلهم لقي مالكا وسمع منه. وتواصلت الرحلة بعد سحنون فرحل أحمد بن معتب (ت 277هـ) ويوسف بن يحي المغامي(ت289هـ) زفرات بن محمد العبدي (ت 292هـ) وسعيد بن سعيد الكلبي (ت294هـ) وغيرهم.

ت. **إيثار مذاهب أهل المدينة:** للمدينة مكانة خاصة في قلوب المسلمين، فهي ثاني الحرمين ومركز دولة المسلمين وتحتضن قبور النبي ﷺ وصحابته وقد توارث الناس هذا التوقير والتقدير لأهل المدينة وهو ما قرره الإمام مالك نفسه في رسالته المشهورة إلى صاحبه الليث بن سعد دفاعا عن إيثاره للأخذ بمذهب أهل المدينة وعملهم إذ يقول:" فإنّما النّاس تُبع لأهل المدينة إليها كانت الهجرة وبها نزل الوحي، وأحل الحلال وحرم الحرام، إذ رسول الله ﷺ بين أظهرهم ، يحضرون الوحي والتنزيل ويأمرهم فيطيعونه ويبين لهم فيتبعونه، حتى توفاه الله واختار له ما عنده صلوات الله عليه ورحمته وبركاته، ثم قام من بعده أتبع النّاس له من أمته، ممن ولي الأمر بعده."[58] ولا يخفى أنّ هذه الخاصية التي لأهل المدينة في هذا الشّأن كما تسري على الرواية الفقهية والسنن العملية تسري على القراءة من باب أولى، لأنّ القراءة نقل محض لا مجال فيه لرأي أو اجتهاد شخصي.

ث. **العلاقة الوثقى بين نافع ومالك أو بين القراءة والمذهب المدنيين:** إلى جانب المعاصرة بينهما والزمالة في عهد الطلب والدرس ووحدة الشيوخ (تتلمذا على نفس الشيوخ) فإنّ الوشيجة الأمتن التي زادت توطيد العلاقة وإحكام الوصيلة بين الإمامين المدنيين هي قراءة كل منهما على الآخر، حيث قرأ مالك القرآن على نافع وعرض عليه[59] وقرآ نافع على مالك الموطأ.[60] وكان نافع يحظى بمكانة كبيرة عند مالك حيث قال:" نافع إمام النّاس في القراءة."[61]

ج. **النقل المزدوج للقراءة والمذهب معا على أيدي الرواد:** فالرعيل الأول من علماء الغرب الإسلامي كما مر ذكره كانوا يعودون إلى بلدانهم وقد جمعوا بين رواية القراءة والفقه معا بالأخذ من نافع ومالك أو عن الآخذين عنهم فكانت لهذه الظاهرة دور بارز في نشر القراءة والمذهب دفعة واحدة في بلدان الغرب الإسلامي.

ح. **تشجيع السلطة الحاكمة:** كان الرواد العائدين من الرحلة كانوا في الغالب حملة للقراءة وفقهاء في المذهب المالكي وكانت منزلتهم العلمية ترشحهم لاحتلال مناصب ووظائف هامة في مناطقهم فكان طبيعيا أن يكون تشجيعهم على القراءة والفقه معا وفق المدرسة المدنية التي تخرجوا منها.

خ. **الرغبة في الاستقلال السياسي والفكري على السلطة في المشرق:** كان الغرب الإسلامي يتبع المشرق في المجال السياسي وكان هذا الأمر له تأثير على المجال الفكري والفقهي والمذهبي، وتأثرت القراءات في بلدان الغرب الإسلامي بما كان سائدا من قراءات أئمتها فعرفت إفريقية قراءة حمزة كما عرف الأندلس قراءة ابن عامر. فكان تحقيق الاستقلال السياسي على المشرق يستتبع في كثير من الأحيان تحقيق الاستقلال الفكري والفقهي والمذهبي. يقول أبو بكر ابن العربي:" ولما ظهرت الأموية على المغرب، وأرادت الانفراد عن العباسية، وجدت المغرب على الأوزاعي، فأقامت في قولها رسم السنّة، وأخذت بمذهب أهل المدينة في فقههم وقراءتهم وكانت أقرب من إليهم قراءة ورش، وألزم النّاس حرف نافع ومذهب مالك، فجروا عليه، وصاروا لا يتعدونه."[62]

4. مقومات المدرسة القرآنية في الغرب الإسلامي

ذكرنا سابقا أنّ الفتوحات الإسلامية لعبت دورا مهما في انتشار القرآن الكريم في الأمصار، والمتتبع لأخبار هذه الفتوحات في المصادر التاريخية يلحظ بسهولة أنّه ما من حملة من حملات الفتح إلّا وكان معها جماعة معدودين في قراء الصّحابة. وهو ما يبين الأهمية الكبرى لجماعة القراء. ولقد كان رسول الله ﷺ يدرك أنّ أنجع وسيلة لتثبيت الإيمان في القلوب هو تعليم النّاس القرآن ولذلك كان يرسل أصحابه إلى القبائل لتعليمهم القرآن وكان يأمر قيادة الجيش بأن "يعلم الناس القرآن ويفقهم في الدين وينهى النّاس فلا يمس أحد القرآن إلّا وهو طاهر."[63] وصار هذا الأمر سنة حميدة عند الصّحابة والتابعين فهذا عمر الفاروق يبعث إلى أهل الولايات بالشام والعراق قائلا:" إنّما بعثت عمالي إليكم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم."[64] وكان الحافز للمشاركة في بعثات التعليم والإقراء كبير جدا عندما أعلن الرسول الكريم ﷺ" خيركم من تعلم القرآن وعلمه."[65] وكان انتشار القرآن الكريم بين أهل الغرب الإسلامي من طريقين:

أ –البعثات التعليمية.

ب –معاهد تعليم القرآن.

فهذان الرافدان من أهم الروافد التي انتشر بواسطتها القرآن الكريم في الغرب الإسلامي، وهما يمثلان الترجمة العملية للتلقي من الصدور إلى الصدور، تلك الطريقة التي أُخذ بها القرآن الكريم من لدن الصّحابة بل إن النبي ﷺ نفسه كان هو أول المتلقين في هذا الأمر، إذ أخذه عن جبريل عليه السلام بطريقة التّلقي كما قال الله عز وجل:" إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ "[66]

1.4البعثات التعليمية:

شعر القادة الفاتحون للغرب الإسلامي بأهمية وجود من يُعَلِّم أهلها القرآن الكريم وعلوم الدين المختلفة، فلم يكتفوا بمجرد وجود من يقرئ الناس كتاب الله في هذه البلاد كسفيان بن وهب الصحابي(ت82هـ) وعبد الرحمن بن الأسود التابعي (ت98هـ) وغيرهما، بل أرادوا أن يكون هناك معلمون معينون من قبل هؤلاء القادة وظيفتهم الأساس هي إقراء الناس القرآن وتعليمهم العلم.

ومن أهم تلك البعثات التي دخلت ليبيا وبلاد الغرب الإسلامي:

- **بعثة عمرو بن العاص**: وهو أول من فتح ليبيا سنة 21 هـ وبنى فيها مسجدا وهو من المعدودين في القراء كما ذكرنا.
- **بعثة العبادلة السبع**[67]: وهي الحملة الثانية كانت سنة 27 هـ بقيادة عبد الله بن أبي السرح، وتذكر الروايات التاريخية أنّ تعداد هذا الجيش كان عشرين ألفا أكثرهم من الصّحابة.[68] أعادت فتح المدن التي ارتدت في ليبيا ثم توجه إلى تونس.
- **بعثة عقبة بن نافع الفهري**: في بعثته الثانية زمن يزيد بن معاوية سنة 62 هـ كان هناك 25 من الصّحابة الكرام.[69] وعند عودته من الفتح عين جماعة من أصحابه يعلمون النّاس القرآن الكريم ويفقهونهم في الدين وجعل على رأسهم شاكر بن عبد الله صاحب الرباط المشهور على مراحل من مراكش.[70]
- **بعثة حسان بن ثابت**: كانت في عهد عبد الملك بن مروان سنة 78هـ عقد مؤاخاة بين أجناد العرب والبربر و"عهد إلى ثلاثة عشر فقيها من كبار التابعين بتعليم القرآن وأصول الإسلام واللغة العربية.[71]

- **بعثة موسى بن نصير**: كانت سنة 86 هـ وتذكر الروايات أنّه اختار سبعة عشر رجلا من القراء والفقهاء وندبهم إلى سائر الجهات يعلمون القرآن وشرائع الإسلام."[72]

- **بعثة عمر بن عبد العزيز (البعثة العمرية)**: وهي أبرز البعثات وأكثرها تخصصا في القراءة وأعمقها أثرا في مناطق الغرب الإسلامي.

2.4 المعاهد العلمية لتعليم القرآن:

ونعني بها الهيئات التي خصصت لتدريس القرآن الكريم وعلومه، وهي المساجد والمدارس والكتاتيب والرباطات:

* **المساجد:** يعد المسجد المدرسة الأولى في الإسلام وقد ظل يحتفظ بهذه الميزة إلى وقتنا الحاضر وقد وجدت تاريخيا منذ بدايات الفتح الإسلامي ومن أشهر المساجد التي كانت منارة لعلوم القرآن في الغرب الإسلامي جامع الزيتونة في تونس وهو من مآثر التابعي الجليل عبد الله بن الحباب بناه سنة 116هـ وقد ظل جامع الزيتونة مناراً للعلم وبخاصة علوم القرآن الكريم وفيه قسم خاص لتدريس القراءات وهذا ما يدل على عنايتهم بعلوم القرآن بهذا الجامع.

وشكلت قراءة نافع معظم الثقافة القرآنية في الغرب الإسلامي حتى اشتهر ما عرف باسم مقرأ نافع وأصبح هو المرجع الذي يرجع إليه في علم القراءة. ثم يأتي جامع عقبة الذي ابتناه عقبة بن نافع سنة 51 هـ وهو المعروف بجامع القيروان، ثم يأتي جامع القرويين بفاس وهو من معاقل العلم بالغرب الإسلامي وقد أنشأه إدريس الثاني إبان حكمه وقد بدأ العمل فيه مستهل رمضان 245 هـ وقد أُسس باعتباره جامعة علمية في النصف الأول من القرن الثالث الهجري وتخرج منه جماعة من كبار العلماء كأبي بكر بن العربي (ت543هـ) والحاتمي (ت388هـ) وابن خلدون(ت808هـ) وغيرهم، وظل ينافس المعاهد العلمية الكبرى كالأزهر والزيتونة. منها جامع التلمسان بالجزائر الذي أسسه موسى بن نصير سنة 89 هـ واستمر يقوم بدوره العلمي بتعليم القرآن الكريم حتى قال الحميري: "ولم تزل تلمسان داراً للعلماء والمحدثين وأهل الرأي" [73]وكذلك الجامع الكبير بمراكش الذي بناه يوسف بن تاشفين (ت500هـ) في عصر دولة المرابطين. وهذه كلها مساجد تعد مراكز لتعليم القرآن الكريم بالمغرب العربي. ولا ينبغي أن نغفل أقدم مساجد الغرب الإسلامي، وهو جامع عمرو بن العاص بطرابلس المغرب، وقد شيده عمرو بن العاص سنة 23هـ، ويسمى الآن جامع الناقة، وقد استمر التعليم فيه فترة مقصورا على حفظ القرآن الكريم، ثم تكاثرت حلقاته ونما الاهتمام بتطوير التعليم فيه.

* **المدارس:** والمدارس أبنية خصصت للتدريس إما ملحقة بمسجد من المساجد لكنها منفصلة عن مكان الصلاة، وإما أنها مستقلة ببنائها وتتميز مدارس القرآن الكريم بالغرب الإسلامي باهتمامها الفائق بتعليم القرآن الكريم تلقيناً وإتقاناً وقراءات وتفسيراً ولعل من النماذج التي تذكر لمدارس القرآن الكريم في الغرب الإسلامي مدارس مدينة سوس العتيقة بتونس فقد اشتهرت هذه المنطقة بعلم الإقراء منذ عدة قرون ومدارسها كثيرة تتوزع بين السهول والجبال. وهذه المدارس ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: وهي مواطن لحفظ القرآن الكريم، وهي شبيهة في المهمة بأكثر الكتاتيب.
المستوى الثاني: يدرس فيها إتقان الرسم القرآني الكريم المصحفي.
المستوى الثالث: فهو المدارس التي تهتم أساساً بتعليم القراءات السبع وعلم التجويد التطبيقي.

ومن أشهر هذه المدارس في سوس (مدرسة سيدي وكاك بأكلو) وقد عرفت باسم المدرسة الوكاكية وهي مختصة بتدريس القراءات السبع , ومن أشهر أساتذتها الشيخ أحمد البخاري البعمراني , توفي سنة 1286 هـ , أما مدينة مكناس بالمغرب الأقصى فقد اشتهرت أيضاً بالمدارس القرآنية , ففيها كرسي للقراءات من أهم أساتذته الشيخ الفقيه المقرئ محمد بن فضول السقاط الذي اشتهر في مكناس بتدريس القرآن بالروايات لطلبته , وفي (المغرب الأوسط/الجزائر توجد مجموعة من المدارس التي تتخصص في تعليم القرآن الكريم ولعل من أهمها مدرسة (ساهل أقبلي) وهي في بلدة جزائرية تسمى ساهل التابعة لولاية أدرار وهذه المدرسة تعد مركز إشعاع علمي وثقافي في القرنين الأخيرين , وقد اهتمت هذه المدرسة بمحورين أساسيين من محاور تعليم القرآن الكريم وهما التجويد والقراءات. فأما التجويد فيدرسه شيوخ هذه المدرسة للطلبة نظرياً وتطبيقياً فتطبق أحكامه أثناء قراءتهم للقرآن الكريم فرادى وجماعات، وأما القراءات فلهم فيها إجازات مشهورة في القراءات السبع خصوصاً قراءتي نافع وعبد الله بن كثير المكي ، ومن أشهر الأساتذة بهذه المدرسة العلامة المقرئ السيد المختار بن أحمد بن محمد المعروف بابا المختار وكان عالماً عاملاً حافظاً لكتاب الله مقرئاً له تولى تدريس القرآن بهذه المدرسة حتى توفي سنة 1315 هـ.

***الكتاتيب** : الكتاب يعد أول معهد استقل بمهنة تعليم القرآن الكريم على وجه الخصوص ، وربما ضم إلى ذلك ما يحتاج إليه الصبي في حفظه للقرآن من تعلم مبادئ القراءة والكتابة وبعض مبادئ الإسلام الفقهية أو التربوية , وقد اشتهر المغاربة بعنايتهم بتلقين القرآن الكريم وتحفيظه لناشئتهم منذ نعومة أظفارهم ، ويرى ابن أبي زيد القيرواني أن

في تلقين الصبي القرآن مبكراً فائدة تربوية لخصها بأنه "يروى أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله ، وأن تعلم شيء في الصغر كالنقش في الحجر"[74]وقد انتشرت الكتاتيب في الغرب الإسلامي وكان لها دورها الحيوي علمياً وتربوياً وهي لا زالت الى اليوم.

* **الرباطات**: وهي من أهم المراكز الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي ، ويعد تعليم القرآن الكريم من وظائفها الأساسية وأصل الرباط ثكنة تتكون من صحن ومن عشرات الغرف حول هذا الصحن ، وتنتهي هذه الثكنة بجامع كبير له مئذنة تستخدم للأذان ولمراقبة السواحل من غارات العدو , ويشتهر الرباط منذ عهد المرابطين ببث العلم في صدور الطلبة رجالاً ونساءً احتساباً ، ويوجد في كل رباط دار لاستنساخ المصحف الشريف ومجامع الحديث والفقه وتوزيعها على طلبة العلم بالمجان , وتعليم القرآن الكريم وتفسيره من أهم العلوم التي تدرس في الأربطة , ومن الأربطة المشهورة في الغرب الإسلامي رباط هرثمة بن أعين الذي أسس سنة 181 هـ بمدينة المنستير (تونس) , ثم كثرت الأربطة من بعده حتى كان بين الرباط والرباط مسافة تقدر بنحو 6 كيلو مترات.[75]

3.4 استنساخ المصاحف ونشرها:

من المعلوم أنّ القرآن الكريم دخل منطقة الغرب الإسلامي محفوظا في الصدور ومكتوبا في السطور، ولا شك أنّ المصاحف الأولى التي دخل بها الصّحابة والتابعون قد كان لها أثرها في دعم حركة التعليم والإقراء وتزويد المكاتب بوسيلة أساسية يستأنس بها المتعلمون ويرجع إليها المعلمون في تصحيح التلاوة وتحقيق الحروف. وقد كان لقادة وأمراء الجند والقراء المنتدبون للإقراء مصاحفهم الخاصة. ويمكن أن تكون مصاحف الولاة الأولين بمصر قد عرفت طريقها إلى الغرب الإسلامي بالنسخ والقراءة ومن أهمها "مصحف عقبة بن عامر" الذي مات وهو وال بمصر سنة 58 هـ. وكان مقرئا فصيحا مفوها من فقهاء الصّحابة.[76] وكان له مصحف خاص كتبه بخطه.[77]

6. الخاتمة:

عرفت "قراءة نافع المدني" انتشارا كبيرا في بلاد الغرب الإسلامي فقد أصبحت القراءة الرسمية في هذه الربوع. فبعد أن ارتقى بها مؤسسها (الإمام نافع المدني) إلى مصاف القراءات المتواترة، فقد بدت قراءة أصيلة متينة تلقفها الطلاب من كل حدب وصوب فنهلوا من علومها وتشبعوا من أدابها وانتشروا بها في الأرجاء فنشروها وأورثوها الأجيال المتعاقبة حتى بدت علامة ثقافية مميزة ساهمت في تعريب لسان السكان الأصليين البربر وحفظت لهم هويتهم التاريخية والحضارية ضمن وحدة مذهبية دينية.

ولئن ساهمت جملة من العوامل التاريخية والسياسية (كالرحلة في طلب العلم من الشرق وتدخل السلطات السياسية ...) في نشر قراءة نافع فإنّ شخصية الإمام المؤسس بما امتازت به من نبوغ وسعة الثقافة ومتانة التكوين والتحصيل من جهة ومنهجه القويم المبني على قوة الأسانيد وتواترها وصواب اختياراته .

النتائج والتوصيات: توصلت الدراسة إلى الدور الهام التي قامت به قراءة نافع في نشر القرآن الكريم في الغرب الإسلامي وتوطين الإسلام في هذه الربوع وتثبيت الإيمان في قلوب معتنقيه فقد امتازت هذه المدرسة القرآنية تاريخيا بإسهاماتها العظيمة في تعريب البربر وصقل اللّسان العربي والحفاظ على الهوية العربية الإسلامية وهي مهمة تزداد أهمية في عصرنا الحاضر عصر العولمة والغزو الحضاري. ورغم هذا الدور العظيم الذي قامت به هذه المدرسة القرآنية فإنّ المراجع التي تتحدث وتؤرخ لهذا الدور الحضاري في الغرب الإسلامي وتبرز علمائها ومشايخها من الفتح الإسلامي إلى يومنا هذا، تبدو شحيحة وفي حاجة إلى مراجعة واهتمام. من أجل ذلك يوصي الباحث بما يلي:

1. بعث (مركز بحوث نافع للقراءات) يهتم بتشجيع الباحثين للكتابة في هذا الموضوع ووضع استراتيجية واضحة للتعريف بهذه القراءة ورموزها في المغرب الإسلامي ونشر الكتابات المتصلة بها. مع العمل على التعريف بهذه الشخصية (نافع) وتلاميذها.
2. إقامة مؤتمر سنوي مختص بقراءة نافع والروايات المنبثقة منها وانتشرت في هذه الربوع (قالون + ورش) يشارك فيه الخبراء. يختار كل سنة شخصية أو موضوعا يكون متصلا بالقراءات القرآنية.
3. ندعو المؤسسات الرسمية والأهلية إلى إعادة بناء استراتيجياتها التعليمية والثقافية على ضوء متطلبات العصر وتحديات الحاضر. بما يخدم نشر هذه القراءة بالوسائط الحديثة وحمايتها من الغزو الثقافي.

7. قائمة الهوامش:

[1] – ابن سعد، الطبقات الكبرى 450/7، ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ص750، ابن حجر تهذيب التهذيب، 407/10

[2] – معنى: جعونة بفتح الجيم وسكون العين وفتح الواو والنون وبعدها هاء ساكنة: الرجل القصير، ثم سمي به الرجل، وإن لم يكن قصيراً وجعل عليه علماً.

[3] – ابن قتيبة، المعارف 230، ابن مجاهد، السبعة 54/53، ابن الباذش، الاقناع 55/1.

[4] – حميتو عبد الهادي، قراءة الإمام نافع عند المغاربة، 201/1.

[5] – الجعبري، كنز المعاني، ورقة 11(مخطوط)

[6] – يروي ذلك أبو القاسم الهذلي صاحب كتاب: الكامل في القراءات الخمسين وإن كان الامام الذهبي يرتاب في هذه الرواية. انظر الذهبي في سير أعلام النبلاء 6.

[7] – من محاضرة لإبراهيم صالح الحسيني من علماء نيجيريا منشورة في محاضرات "ندوة الإمام مالك " 126/1.

[8] – ابن قنفذ، شرف الطالب في أسنى المطالب ص34.

[9] – البستي محمد بن حبان، مشاهير علماء الأمصار، ص141

[10] – انظر: ابن مجاهد، السبع في القراءات، ص62، وابن خلكان، وفيات الأعيان 368/5.

[11] – بن عقيل أبو القاسم، الكامل في القراءات العشر، ص 42.

[12] – المرجع نفسه، ص44.

[13] – ابن مجاهد، السبع في القراءات، 61.

[14] – نقله الجعبري في ترجمة نافع في كنز المعاني(مخطوط)

[15] – ابن مجاهد، السبع في القراءات، ص62.

[16] – المرجع نفسه،63.

[17] – المكي، التبصرة في القراءات 46/45.

[18] – الاندرابي، قراءات القراء المعروفين،62.

[19] – حميتو عبد الهادي، قراءة الإمام نافع عند المغاربة، 281/1.

[20] – المرجع السابق ،341.

[21] – ابن القاصح، غيث النفع بهامش سراج القارئ، ص22/21.

[22] – المارغني، دليل الحيران 25.

[23] – حميتو عبد الهادي، قراءة الإمام نافع عند المغاربة، 383/1.

[24] – العجلي، تاريخ الثقات، 447، ترجمة 1678.

[25] – ابن شاهين، تاريخ الثقات ممن نقل عنهم العلم، 322، ترجمة 1404.

[26] – الذهبي، سير أعلام النبلاء 337/7.

[27] – ابن الجزري، غاية النهاية، 333/2، الذهبي، معرفة القراء الكبار، 92/1.

[28] – ابن الجزري، غاية النهاية، 338/7.

[29] – ابن مجاهد، السبعة:63.

[30] – ابن تيمية، السياسة الشرعية، 26.

[31] – ابن الجزري، غاية النهاية، 601/1.

[32]– هند شلبي، القراءات بإفريقية، من الفتح إلى منتصف القرن الخامس الهجري، ص26/25

[33] – صنف ابن أبي داود كتاب المصاحف، وذكر فيه مصحف كل من هؤلاء الصحابة على حدة، وقد نشره أثر جفري.

[34] – عبد السلام الكانوني، المدرسة القرآنية في المغرب، ص 30

[35] – حميتو عبد الهادي، قراءة الإمام نافع عند المغاربة، 67/1.

[36] – ورد في حديث علي:" أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم يأمركم أن تقرأوا القرآن كما علمتم." ابن مجاهد، السبعة، 47.

[37] – علم الدين السخاوي، جمال القراء وكمال الإقراء: 424/2.

[38] – حميتو عبد الهادي، قراءة الإمام نافع عند المغاربة، 76/1.

[39] – ابن أبي داود، المصاحف 60

[40] – ابو حيان الغرناطي، البحر المحيط 28/1.

[41] – ابن عذاري، البيان المغرب 54/1.

[42] – شلبي هند، القراءات بإفريقية 147.

[43] – الذهبي، تاريخ الإسلام، 306/2.

[44] – الزاوي الطاهر أحمد، ولاة طرابلس، ص14.

[45] – الداني، المحكم ص3، ابن الجزري، النشر 33/1.

[46] القاضي عياض، ترتيب المدارك، 2/ 124-180.

[47] – القاضي عياض، ترتيب المدارك 51/4،

[48] – حميتو عبد الهادي، قراءة الإمام نافع عند المغاربة، 130/1.

[49] – القاضي عياض، ترتيب المدارك 25/1

[50] – محمد بن سحنون، أدب المعلمين، ص102.

[51] – ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس 799/2.

[52] – القاضي عياض، ترتيب المدارك 313/4.

[53] – القاضي عياض، ترتيب المدارك 36/4.

[54] – القاضي عياض، ترتيب المدارك 37/4.

[55] – ابن مجاهد، السبع في القراءات، 64.
[56] – الذهبي، معرفة القراء، 90/1.
[57] – صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، 54.
[58] – القاضي عياض، ترتيب المدارك 41/1.
[59] – ابن خلكان، وفيات الأعيان 135/4.
[60] – المارغني، دليل الحيران في شرح مورد الضمآن، 25.
[61] – غاية النهاية، 333/2.
[62] – أبو بكر بن العربي، العواصم نت القواسم، 199/2.
[63] – ابن كثير، السيرة النبوية 117/4.
[64] – ابن تيمية، السياسة الشرعية 26.
[65] – أخرجه البخاري في صحيحه برقم (5027) 232/3
[66] – سورة القيامة –آية 17 –18.
[67] – وهم الصحابة: 1– عبد الله بن سعد بن أبي سرح (أحد كتاب وحي الرسول صلى الله عليه وسلم 2– .عبد الله بن الزبير بن العوام،(وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق) 3–.عبد الله بن عباس بن عبد المطلب 4–.عبد الله بن جعفر 5–.عبد الله بن عمر بن الخطاب 6–.عبد الله بن مسعود –7 .عبد الله بن عمرو بن العاص.
[68] – أبو يعرب، طبقات علماء افريقية وتونس. 70.
[69] – ابن عذاري، البيان المغرب 23/1.
[70] – المرجع نفسه 27/1
[71] – عبد الرزاق محمد اسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب 38.
[72] – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 110/6.
[73] – خضيري حسن، صفحات من تاريخ المغرب الإسلامي ص 226.
[74] – أبو زيد القيرواني الرسالة الفقهية ص73.
[75] – صفحات من تاريخ المغرب الإسلامي ص 230 , والمدرسة القرآنية في الغرب ص 36.
[76] – الذهبي، العبر في أخبار من غبر
[77] – خورشيد عبد الله، القرآن وعلومه في مصر، 158.